الفصل الثامن

لن يتبدل

ولكن تلك المشاهد لم تتبدل ..

-كفاك تتزينين!

-زينتي طبيعية.. هل أنتظر حتى أصبح عجوزا فأتزين؟

-أليس بوسعي أن أشقيك وأحرق قلبك؟ ولكنني رجل شريف.

-لست أفهم شيئا مما تقول.. ماذا ، ماذا يغضبك؟

-كفى تمثلين.. كأنك لاتدرين أبدا بما يغضبني.. انني أكـاد أجـن، أفسدت علي كل صداقة.. كيف تنظرين الى الناس وتحادثينهم وتـصغين وتتحببين اليهم.. لاتعرفين أبدا أن تتصرفي تصرفا لائقا..

-ما حيلتي فيك! أهذا ما يغضبك؟ انك وريث أجيال من سوء الظـن بالمرأة.. ماذا تاخذ علي؟.. أنظر الى الناس كنماذج بشرية تزيد خبرتـي بالحياة.. لاأكثر ولا أقل..

وثار غضبه:

-أريد زوجة ولا أريد رسامة نماذج.. ان الناس لايفسرون الأمر بأن غايتك رسم نماذج.. يجب أن تفهمي بأنني لاأحتمل هذا الأمـر.. انـك تطعنينني في الصميم.. دائما نفس القصة..

-آه، انك لاتحتمل أن أسأل رجلا ثلاثة أسئلة دون ان يخامرك الظن بأنني أغرمت به.. لماذا لاتعترف! ان كل آرائك التقدمية عـن المـرأة وتحررها لم تجفف قطرة من قلبك الغريق في رواسب الماضـي.. أنـا لست ظلا لأحد، ولا أريد أن أكون.. ان شخصيتك تطفئني، ان شـكوكك تزرع الحرج الآثم في صدري.. انني أحب أن أنظر في وجـوه النـاس وأستشف مشاعرهم.. أحب أن أنقّب الأفكار وأعـرف صـحيحها مـن

زيفها.. ان مهنتي هي الناس ومشاعر الناس وأفكار الناس.. أفي هذا عدم لياقة؟ لايخالجني الشعور قط حين يستغرقني إصغاء أو نقاش أو حـديث أنني امرأة ومحدثي رجل.. فلماذا تنغص عيشك وعيشي؟

-ان هذا التصرف لايناسبني أبدا..

-أبدا لن أبرر نفسي بعد اليوم.. حتى تعتاد علي.. وان ضيقت علي سأصوم حتى الموت.. هذه هي الطريق الوحيدة التي ترتاح بهـا منـي وأرتاح أنا منك..

-لست بحاجة لهذا.. يمكنك أن تتركينا!

-مصيبتي أنني لاأستطيع أن أتركك وأترك عزيز.. أفكر في الأمـر ليل نهار.. لايمكنني أن أفعل هذا دون أن أكلف نفسي من الشقاء مـا لا قبل لي به.. تزوجتك وسأتركك الى مكان واحد، الى القبر!..

-لاتتحدثي بحديث العواطف.. سنضع العواطف جانبا..أغلقنا ألبـوم المشاهد والصور.. هذه آخر صورة أسمح بها.. ضاق احتمالي.. ألـف مرة نبهتك وأنت تكررين الأمر نفسه.. كأنما ليس بينـك وبـين النـاس كلفة.. إبحثي لنفسك عن الشهرة في غير بيتي..

-أألنا أبحث عن الشهرة؟ لو كنت أفعل لما دفنت أدبـي كـل هـذه الأعوام دون ان أنبس ببنت شفة.

-أألنا أمنعك عن الكتابة؟

-كلا ولكنك لاتساعدني ولا تشجعني.. أشعر كأنما بينك وبين أدبـي عداء.. انني مستعدة أن أتخلى عن كل المجتمعات وأعتـزل النـاس ان شئت ولكنني أريد أن يحيا أدبي.. أريد أن أناضل بوسائلي، بقلمي، أفـلا يحق لي هذا؟

-بمثل عقليتك ماذا تنتجين؟ هذرا وسفاسف.

-أتقول هذا؟ لايمكن أن يكون حبك لي حقيقة ان لم تحب أدبي.. اننا شيء واحد..

-ومن قال لك أنني مغرم بك؟

-أنت.. أيمكن أن تكذب طوال هذه الأعوام علي؟

-انتهى الآن كل شيء.. صبرت عليك طويلا.. ولكنك لم تـصلحي نفسك..

-لست أعرف لنفسي عيبا أصلحه.. انك تهاجمني وأنا خالية الـذهن من كل ما يحوك في صدرك، وينتابني ذلك الشعور الحزين بـأنني لـم أستطع أن أكسب ثقتك.. ماذا تأخذ علي؟ انني لاأعـرف النقطـة التـي ترضيك بين انكماشي وانطلاقي.. لماذا تضحك أنت وتمزح مع النـساء ولا أتهمك بيني وبين نفسي؟ قد أتضايق أنا الأخرى.. انني انسانة ولست حجرا.. ولكن لم يحدث أن انتقدتك مرة واحدة.. انني لا أريـد أن أزرع في نفسك مثل ذلك الحرج الذي زرعته أنت في نفسي..آه!

-كفى، كفى! الجماعة ينتظروننا.

-لاأريد أن أذهب.. لاأود أن أشاهد الفيلم..إعتـذر عنـي للأسـتاذ إحسان وزوجته.. انني أشعر حقا بأنني مريضة ومجهدة.

ولكنه أصر على ذهابها.. فارتدت ثيابها وقلبها ينـوء بكآبـة ثقيلـة لاتستطيع احتمالها. وفي السينما كانت تتباسم وتحاول أن تخفي جراحهـا كي لايلاحظ أحد ما بها.. ولكن عبثا استطاع فكرها أن يشغل بالمشاهد. كانت الدموع تختنق في حلقها وصدرها، وتملكها صداع أخذ يشتد حتـى لتحس برأسها ينبض ألما.. ولم تلبث أن شعرت بالغثيان والعرق البـارد ينبع من جبينها. وتدفق اللعاب في فمها فراحت تبلع ريقها وشعور الغثيان قد أطبق عليها.. انها لاتريد الاّ أن تتحامل حتى البيت ولا تصبح مشهدا

للناس.. وحلت أزرار سترتها.. المشاهد تدور أمام عينيها ولـيس بينهـا وبين الإغماء الاّ طرفة عين، لكأن قلبها معلق الى جسدها بشعرة.. أكـل هذا الألم والضيق تحسه للهجته الجافة؟ ولم يكد ينتهي الفيلم حتى تنفست الصعداء، لعل قليلا من الهواء في الخارج يعيد اليهـا قواهـا.. وحـين ارتدت معطفها شاهدت وجهها في المرآة شاحبا كالأموات.. وحانت منها التفاتة الى أحمد وهو يحادث زوجة صديقه عن الفيلم.. كانـت لهجتـه رقيقة حتى النعومة، وأذناه مرهفتان لالتقاط كل كلمة.. واستدارت مهـا وإحساسها بالقهر يمزقها.. لماذا لا تأخذ هي عليه رقته ولطفه مع النساء الأخريات وتعتبرها لباقة اجتماعية؟ وتهالكت في السيارة وفـي ذهنهـا تتوارد شتى الصور لملامح وجومه في بعض الأحيان، ذلك الوجوم الذي لاتدري له سببا.. كانت الظنون اذن تحوك في صدره.. وأحست بقلبهـا يرم عليه.. انها إذن لم تكسب ثقته حتى اليوم. وهالها الأمر.. وذكـرت لهجته الجارحة فسكبت المرارة في دمها.. ليس أقسى عليها مـن لهجـة خشنة.. انها تحتقر في قلبها كوسم من نار.. ولم تستطع أن تتعشى.. انها تعلم أن وغره سيزيد عليها.. واستلقت على فراشها لعـل دوار رأسـها يستريح على الوسادة.. ولكنها أحست بأحشائها تكاد تتمزق. وهرعت الى الحمام وهي تمسك رأسها بين يديها فـوق المغـسلة.. معـدتها خاويـة وأمعاؤها تتخبط.. هل هي مريضة؟ أم أن الألم يفعل كل هذا، الألم للهجة خشنة؟ كيف ينفجر هكذا في وجهها؟ هل أصبحت ملكه لأنها تنفق عليـه حنان قلبها وشبابها؟ لو كان رئيسها لأبدلت عملها، لو كان أخوها لأغنتها صداقة الناس عن أخوته، لو كان أي انسان آخر لخاصمته دهرا طويلا، ولكنه زوجها فهل يبدل الانسان زوجه كل يوم؟ وحاولت عبثا أن تهـدئ نفسها.. أليست تعرف أنه لايتمالك نفسه عند الغضب؟ أليست تعرف أنه

يندم؟ آه لو أن دوار رأسها يفارقها! ان سكرة الموت نفسها ليست قاسـية الى هذا الحد.. واستلقت على فراشها فأحست بالألم يهـدأ قلـيلا علـى الوسادة.. ولكن عزيز أفاق وناداها يريد أن يشرب فقامت اليه وسـقته، وكل حركة مطرقة تدق رأسها.. ونظرت اليه مليا وهو يغمـض عينيـه ويعود الى النوم.. أي شقاء هذا!.. وارتدت منامتها واستلقت، ولم يلبـث أن جاء أحمد وارتدى بيجامته وأخذ يقرأ في السريروهو يدير ظهـره.. ولم تدر هل سهت من الإعياء.. سمعت خلال ضباب كثيف يلف ذهنهـا يقول بلهجة غاضبة..

-ان هذا لايحتمل، لايحتمل!

ونبهت حواسها وفارقها شعور الإعياء والنعاس وزاد الصداع حدة، ورأته بعين نصف مغمضة يطفئ النور ويستلقي في آخر الفراش.. ولـم تستطع مها أن تنام بعد.. وجف ريقها وأخذت تبلعه بصعوبة، وخيل اليها أن له صريرا خاصا ينبئ عن يقظتها وما تعانيه.. و أبـت أنفاسـها أن تنتظم، وثقل الهم على صدرها حتى ليزهـق روحهـا.. وغيـرت مـن وضعها فزقزق السرير.. لاشك أنه يعلم بأنها يقظى.. سمعته يتثـاءب.. وأحست بقلبها يقطر ألما لهذا الرجل الحبيب الذي يعذب نفـسه ويعـذبها لغير سبب البتة، وودت لو تمد اليه ذراعها وتطوقه وتهتف بـه "أحمـد، أحمد، أنت لاتدري أي حب أحمله اليك، انني لاأسـتطيع أن أحتمـل أن تدير لي هكذا ظهرك. لاأحتمل هذه السنتيمترات القليلة التي تفصل بيننـا في السرير.. حان لك أن تفهمني"، ولكنها لم تستطع أن تقول لـه ذلـك، وبقيت الغصة تفري قلبها، والدمعة تحرق عينيهـا، والفجـوة المجرمـة وكأنما رصدتها ارادة ساحر شريرموغر القلب حقدا على سعادتها.. وغفا أحمد بعد لأي، وبقيت عيناها الـساهرتان الـدامعتان تخترقـان حجـب

الظلام.. وغير وضعه، ثم مد ذراعه في غفوته وطوقها كعادته، فهـدأت ثائرة عذابها، وغمرتها نشوة فرح عميق، ونبض قلبها بعنـف ترقبـا.. ولكنه لم يلبث أن نفض يده كأنما لسعه تيار.. واستدار منكمشا في أقصى الفراش..

وفي اليوم التالي وكان يوم جمعة أفاق وارتدى ثيابه وخرج من الدار دون فطور، وكانت مها تعد له المائدة فلما سمعت صوت انغلاق البـاب جلست الى الطاولة وانهمرت من عينيها الدموع.. وانتظرت عودته عند الغذاء ولكن لم يبن له أثر.. ولم تستطع مها أن تشغل نفسها ذلك النهـار بشيء آخر سوى التفكير فيه.. لو تدري فقط أن لها ذنبا لهـان الأمـر.. انها تحادث عزيز وتشاركه لعبه وتبتسم له وهي شاردة واجمة.. أهذا هو ماظنته حبا كبيرا بينهما؟ هالها فجأة أن تكتشف أن كل تلـك المـشاعر الحلوة المتبادلة بينهما تعيش على أوهام، كقصر بديع رائع بنـي علـى أساس من الرمل. أي شيء هو الحب الذي لايقوم على ثقة؟ أية صـورة رسمتها مخيلته عنها؟ أتراه لايرى فيها سوى حيوان صغير لاهم لـه الاّ إرضاء نزعاته؟

نام الصغير ولم يعد بعد، وجلست الى النافذة وقلبها ينـتفض لكـل خطوة تخب على الطريق الترب، أو يرن صداها علـى بـلاط الممـر الخارجي، ولم تلبث حين شارفت الساعة العاشرة أن سمعت قلقلة المفتاح في الباب.. ولم يعرج أحمد الى غرفة الجلوس المضاءة، بل ذهب الـى المطبخ حيث أعدت له العشاء، وبقي قليلا ثم سمعت وقع خطواتـه فـي الممر الذي يودي الى غرفة النوم. ورأت النور مضاء من أعلى البـاب الزجاجي الذي يطل على الردهة.. وبقي مضيئا فترة قصيرة ثم أطفـئ وساد المنزل سكون كئيب.. وأحست مها بشيء يكبر في قلبهـا ويـسد

عليها مسالك التنفس، فجلست الى الطاولة حيث تراكمت دفاتر الطالبـات دون تصحيح.. وأخذت تكتب اليه وملء عينيها الدموع.

"الى أين تودي بي بظنونك ياأحمد؟ بقيت طوال الليل لم يغمض لـي جفن أتساءل والأسى يدميني أتمضي أعوام ستة ولا تـزال منـي ومـن أوهامك الهوجاء لم تتغير؟ ظننت هذا من قصص الماضـي، هـواجس مرت وجعلتك أخبر بي وأنا أخبر بك فاذا بها في دمك لم تتغيـر، ولـن تتغير ولو انطفأت عيناي فلا أرى بهما الناس.

أعلم أن بوسعك أن تشقيني وتحرق قلبي أيها الرجـل الـذي يوقـد القلوب حوله أينما سار، ولكنك أنت أيضا لن تعرف سكينة القلب لأنـك شريف بالغ الحنان.. أأمثل؟ لاعرفت عذابي ماحييـت!.. وأنـت أيهـا التقدمي صاحب الفكر النير والإحساس الرقيق تهين هكذا إنسانيتي بمثـل هذه الظنون ثم تنام ملء العين.. ماذا أفعل؟ ان ما يـدمي قلبـي أننـي لاأعرف ماذا أفعل وأنا أرى نفسي وطفلي على شفا هاوية.. ان نظرتـي لن تتغير.. هي النظرة الهادئة المتأملة التي أتطلع بها الى كل شيء، الى الزهرة ودرب الثلج والفرخ والطفل والمرأة والرجل سواء، أنقـل بهـا نماذج الحياة الى الورق.. أحب الحياة، وحماسي للحيـاة والنـاس لـن يتغير.. فماذا تأخذ علي أيها الرجل؟ ألا تفهمني، ألا تفهم عذابي؟ اننـي أخجل من طعامي وشرابي لوبقيت على الهامش ولم أعمل شيئا من أجل الناس.. هذا كل شيء، وكل ما عداه وهم سيطر عليك.. وهذا أكثر مـا يحزنني، لأن السبب الذي من أجله تحفر تلك الهوة ما بيننا سبب لا أملك أن أصلحه.

لماذا لا أبكي وتخنقني الدموع وأنا أرى سـعادتي وسـعادة طفلـي مرتبطة بخيط واه اليك؟.. أنت قربي وتساورك تلك الظنون، فكيف لـو

بعدت عني؟ لا ياأحمد، ماهكذا تكون العلاقة بين إنسانين وهبا نفـسيهما للنضال.. ان هذا النزاع الذي كشف عن نفسه فجأة ليس بالأمر التافـه، معول رهيب يحفر الأخاديد العميقة في دربي، وأرى نفسي أسير علـى منزلق، وأنا ببساطة، غافلة عما يحوك في ضميرك.. لا ياأحمد! أقولهـا بكل كرامتي الجريحة، لاتدع الأوهام تذهب بك هـذا المـذهب.. انـك مسختني في خيالك.. لست أنا تلك التي تراها عيناك.. انني لاأعـرف نفسي وأنت تتكلم عني، وأصبح غريبة على مـشاعري الجميلـة التـي أحملها في حناياي حتى حبي لك.. أهو مجرد رغبة أيها الرجل الكـافر القلب؟ انه حب الإنسان الشريف للإنسان الشريف، انـه فـداء الجنـدي للمناضل الكبير، انه تقديس الطالب للعالم، انه سكينة المرأة لزوجها.. انه أنت جميعا، هذا المزيج الإنساني الرائع الذي يلهب أشواقي..

منذ ليال كنت أشعر بذلك الوهج الذي ينتابني ولـم أسـتطع النـوم، ورحت أذكر كل لمحة مشرقة في أيامنا السعيدة والوهج يزداد والحنـين اليك يطفر النوم من عيني، وأنت قربي لاأملك أن أناديك كما تنـاديني.. وبقيت هكذا حتى الصباح أتمنى لو تشاطر قلبي البهجة والفرح.. كنـت أريد أن أعبر عن كل تلك المشاعر الرائعة التي أحسها في تلك اللحظة، وأسكب معها الإمتنان العميق للرجل الذي أسعد حياتي وفتح عيني علـى عالم كله جمال..

ماأسهل ما ترتوي رغبات الجسد ياأحمد.. ان خيالا متوقدا كخيـالي يستطيع أن يبدع جنة من الأحلام.. ولكن الحب أغزر من هذا عنـدي.. فرح عميق متبادل.. ان هذا الشعور ياأحمد لا يعطى لكل الناس ولكـل عابر سبيل.. انه يغتذي وينمو طيلة أعوام ستة.. شيء كبير في قلبي ولا يستحق منك الإمتهان.

قد تناديني والنوم في عيني وجسمي فلا أكاد أسمع صـوتك وأشـم رائحتك الحبيبة حتى يرتعش جسدي.. وانه تافه هذا الحب الذي يعـرف كيف يهب نفسه بسخاء، ولا يعرف كيف يحترم وقتك ويحتـرم نـضالك ويحترم أعواما رائعة عاشها معك..

فكر في هذا الكلام مليا ياأحمد، فلست أكتب اليك انشاء.. انه أنـين روحي طوال ليلة البارحة التي لم يغمض لي فيها جفن..

وطوت مها الورقة وسارت على أطراف أصابعها وفتحـت البـاب بهدوء ، ورأت أحمد على شعاع باهت من مصباح الشارع كان يختـرق فجوة بين الستائر ويبدد الظلمة وقد غفا وانحسر عنـه اللحـاف فغطتـه بهدوء.. وبدا لها وجهه وهو نائم يعاني ألما مكبوتا.. ووضعت الورقـة على الكوميدينة بحيث تقع العين أول ما تقع عليها حين يـشعل النـور. وحملت بطانية إضافية كانت فوق الفراش وعادت الى غرفة الجلوس..

كانت ليلة باردة من ليالي آذار فالتحفت بالبطانيـة واسـتلقت علـى الديوان ولكنها لم تشعر بالدفء. وجافاها النوم، وأخذت ترتجـف وهـي منكمشة على نفسها، وخيل اليها أنه ليس هناك أكثر سـخفا مـن امـرأة تهجر فراشها، وفي مثل تلك الليلة الباردة.. وأحست بالبرودة تسري من أطرافها الى قلبها فتجعل الوحشة فيه أشد قسوة. وأشعلت النور وأخـذت تقرأ، ولكنها لم تكن تستطيع أن تستوعب شـيئا ممـا تقـرأ.. ومـرت الساعات وهي تتململ وتصغي الى الريح تصفر في الخارج والى أسنانها تصطك.. وأسفت لأنها خدعت بالأيام الدافئة فرفعت مدفأة المازوت قبل الأوان.. وشعرت فجأة بالسخط على أحمد لأنه ينعم في نـوم مـستغرق وفي فراش دفيء، ونعت على نفسها لأنها تبادره بالصلح ولو كان متجنيا عليها.. ولكن ماذا تفعل؟ لم يكن من بد أن يطأطئ أحدهما من كبريائـه

في مثل تلك الظروف، ومن الأفضل لها أن تفعل من أن تـأزم الأمـور بينهما يوما بعد يوم لغير سبب البتة.. انها تستطيع في لحظات الصفاء أن تعاتبه ويكون عتابها أفعل في نفسه..

ولم تلبث أن سمعت حركة في الردهة فخفق قلبها بعنف.. لاشك أنه جاء ليصالحها. وأغمضت عينيها، ورأته في عين خيالها يقتـرب منهـا ويتلمس شفتيها ويتحسس يديها المثلجتين، ويقول لها بلهجته الحنون "كيف تنامين هنا ياحبيبتي في هذا البرد؟ أنظري الى يـديك المثلجتـين أيتهـا المجنونة الصغيرة" ولكن شيئا من هذا لم يحدث.. انقض عليهـا صـوته الهادر فنفضها نفضا:

-ليس عندي زوجة تتحداني! هل تفهمين؟

وفتحت مها عينيها، فرأته ينتفض غضبا، وقد تلون وجهـه بزرقـة داكنة، وخشيت أن يفلت منه زمام غضبه فيضربها، وتكون النهايـة مـا بينهما.. وتحفزت حواسها ونظرت اليه بعينين وكأنهمـا زران مثبتـان وجسدها ينتفض بتشنج عصبي..

وأردف بصوت منخفض مهدد:

-انني في غنى عنك ولو لدي منك عشرة أطفال. هل تفهمين؟ انـك لاتعرفين قدر الرجال.. ماكان أغناني عن الزواج؟ ان رجلا مثلي لايجب أن يتزوج أبدا.. ظننتك شيئا آخرولكنك سخيفة ككل النـساء.. تـشددن الرجل بثقالة الى الوراء.

ولم تنبس مها ببنت شفة، بل أشاحت بوجهها وتنهدت.. وخرج أحمد من الغرفة وبقيت مها تنتفض. ولم تدر كم من الوقت مر بها على تلـك الحال.. وعاد ووجهه وجها آخر طافحا بالبشروالرقة، وانفرجت شـفتاه عن ابتسامة حلوة واقترب منها وحملها بين ذراعيه، ومد لها شفتيه ليقبلها

فضربته على فمه برقة وقالت له بلهجة مـزيج مـن الحـب والـشعور الجريح:

-إذهب، لاتكلمني! لعنك الله..

وانهمرت دموعها من عينيها وهو يقبلها ويضحك، وغمغمت خـلال عبراتها وهو يقطع بها الردهة:

-وتدعو نفسك تقدميا! لقد تحرر فكرك ولكن قلبك لم يتحرر..